**قسم التاريخ و الآثار**

**مقياس منهجية البحث التاريخي**

**السنة الأولى ماستر تخصص : المغرب العربي المعاصر**

1. **د : سفيان لوصيف**

يمثل التاريخ الشفوي منهج بحث مهمته دراسة الماضي من خلال الكلمة المحفوظة في الذاكرة الإنسانية، و المنقولة مشافهة من خلال روايات الأفراد و ذكرياتهم عن أحداث حياتهم، و خبراتهم، و مشاهداتهم خاصة تلك التي شاركوا فيها شخصيا أو كانوا شهودا عليها.

يواجه التاريخ الشفوي مشكلات أساسية، و منها الموسمية و انعدام التواصل و هذا ناجم عن غياب الخطط و انعدام التنسيق بين الباحثين و المؤسسات العامة في هذا الحقل، لأن البحث في التاريخ الشفوي معتمدا على المبادرات الفردية، من هنا نتساءل كيف يمكن لنا أن نعيد إحياء و تفعيل ما تحتويه الذاكرة ؟ كيف نوثق مكنوناتها و ندرسها و نستفيد منها و نوظفها بالشكل الصحيح ؟ كيف يمكن لنا أن نستغل هذه الذاكرة من أجل إعادة كتابة التاريخ و تجسيده و تنقيته من شوائب ؟

الإجابة عن هذه التساؤلات تكمن في توفير و تطبيق كل الطرق و الوسائل و الوسائط الفاعلة و أهمها منهج التاريخ الشفوي، و قد تبين من خلال الخبرة و التجربة و النماذج الواقعية المعتمدة على اللقاءات الميدانية مع العديد من الشهود الذين لا نقرؤهم في المراجع التاريخية، تبين القيمة العلمية و الأهمية التاريخية للذاكرة الشفوية بوصفها مصدر المعرفة التاريخية، فالرواية التاريخية تزود الباحثين و المؤرخين بمصادر جديدة، فقد تنفي أو تؤكد ما هو مكتوب في الرواية الرسمية، و قد تضيف التفاصيل للأحداث المذكورة، و في أحيان كثيرة قد تعطي تفسيرا واضحا حول أحداث هامة، و قد تكشف عن حقائق و أسرار غامضة لم تذكرها المراجع الرسمية.

استخدم المؤرخون العرب و المسلمون المادة الشفهية بشكل واسع، بل إن قدرا من التراث العربي المدون في ميادين علمية كثيرة، كان تراثا شفهيا قوامه التداول و الرواية الشفهية، و هناك إجماع على أن جل المحدثين و المؤرخين و الإخباريين و الأدباء و الشعراء الأوائل قد استفادوا من المصادر الشفهية، و يأتي في هذا المقام ما دونه عدد كبير من المؤرخين المسلمين، الذين اعتمدوا اعتمادا كبيرا على التاريخ الشفهي، فدونوا معظم كتاباتهم من أفواه الناس و الرواة المعاصرين للأحداث، و يرجع الفضل إلى العلماء المسلمين الذين قنّنوا قواعد علمية للاستفادة من الروايات الشفهية، أصبحت تلك القواعد فيما بعد علوما مستقلة مثل علم الإسناد، و علم الرجال، و علم الجرح و التعديل، و مصطلح الحديث، و غير ذلك كثير.

و هنا نذكر كتاب السير، و الفتوحات الإسلامية كالبلاذري، و معاصري الحروب الصليبية كابن منقذ، و غالبية كتاب الرحلات كالمقدسي، و الإدريسي، و بن بطوطة، و كتاب التاريخ العام، كالطبري، و المقريزي، و بن تغري في كتابه' النجوم الزاهرة في أخبار مصر و القاهرة '، و ما دونه محمد بن إياس في كتابه ' بدائع الزهور في وقائع الدهور'، و الأمير حيدر الشهابي في كتابه ' الغرر الحسان في تواريخ أهل الزمان' و طنوس الشدياق في كتابه' أخبار الأعيان ' في جبل لبنان، و شيخ المؤرخين المصريين عبد الرحمن الجبرتي في كتابه' عجائب الآثار في الوقائع و الأخبار' المعروف باسم تاريخ الجبرتي.

أما في العصر الحديث فقد نشطت حركة الاستفادة من المأثور الشفهي في ميدان التاريخ منذ القرن 12 م حتى القرن 16 م في أوروبا، و نتج عن ذلك كتب تاريخية كنظام الحوليات، و مؤلفات عن تاريخ المدن و تاريخ الأسر الحاكمة، ثم ضعفت الحركة في القرن 19 م، أما في أمريكا فقد استمر الاهتمام بالتراث الشفهي، ذلك لأنه يشكل المصدر شبه الوحيد للسكان المحليين و المهاجرين على حد السواء، و بحلول القرن 20 م ازداد الاهتمام بالمأثور الشفهي في ميدان التاريخ، و لم يطلع فجر عقد الستينات من ذلك القرن إلا و قد برزت حركة علمية بقيادة المؤرخين و الأنثربولوجيين تدعو إلى اعتماد المأثور الشفهي مصدرا من مصادر التاريخ.

تبنت جامعة كولومبيا عام 1948 مشروعا للتاريخ الشفهي كان الغرض منه جمع المذكرات الخاصة بشخصيات أمريكية عامة، أما في بريطانيا خلال الخمسينات و الستينات من القرن الماضي، فقد انصب اهتمام رواد التاريخ الشفهي على تسجيل خبرات الطبقة العاملة البسيطة، و قد اندمج ذلك الاهتمام مع الالتزام السياسي بمقولة التاريخ من الأسفل أو بمعنى أدق أن التاريخ ليس هو التاريخ الذي يرصده الصفوة فقط، تلك المقولة التي اتفق عليها عدد من المؤرخين الاجتماعيين في بريطانيا و العالم في ستينات القرن الحالي، و لا نغفل أيضا ريادة المؤرخ 'Paul Thompson' حيث أنشأ جمعية التاريخ الشفهي البريطانية في أوائل السبعينات من القرن الماضي، و أسهم في تطوير حركة التاريخ الشفهي منذ نهاية ذلك العقد، و يعتبر كتابه' The voice past : Oral History ' مرجعا أساسيا في التاريخ الشفهي.

**ماهية التاريخ الشفوي:**

اقتبس المؤرخون مفهوم التاريخ الشفوي عن السوسيولوجيين الأمريكيين، إذ بدأت تظهر شيئا فشيئا فائدة النص الشفوي في توسيع فهم التاريخ، و أخذ المؤرخون يعيدون الاعتبار للحكي و يتناولونه كمصدر تاريخي، و كموضوع للتاريخ في الآن نفسه.

لقد نقل الدكتور نبيل سلامة من قاموس لاروس Larousse، أن التراث الشفوي هو: " مجموعة التقاليد من أساطير و وقائع و معارف و مذاهب و آراء و عادات و ممارسات، أما قاموس روبير فيعرف التراث الشفوي بأنه:' انتقال غير مادي للمذاهب و الممارسات الدينية و الأخلاقية المتوارثة من عصر إلى آخر بواسطة الكلمة المنطوقة'، و يزداد الأمر تعقيدا عندما ننظر في التعريفات التي أوردها المشتغلون بهذا العلم، و سيرد شيء من هذا في ثنايا البحث.

روايات تاريخية متنوعة رواها أناس يعرفون الحدث التاريخي و يلمون به، أو ببعض منه، و قد يكون هؤلاء الناس مهمين في مجتمعهم أو عاديين، و لكنهم يكنزون في صدورهم روايات الماضي، و لهم دراية كبيرة بأحداث مجتمعاتهم.

التاريخ الشفوي منهج بحث يعني دراسة الماضي من خلال الكلمة المحكية المحفوظة في الذاكرة و المنقولة مشافهة، عملية تجميع و دراسة المعلومات التاريخية باستعمال مسجلات صوتية لمقابلات مع أشخاص يتذكرون أحداث الماضي، و هو اتجاه في كتابة التاريخ يعتمد إلى حد كبير على إجراء مقابلات مع كبار السن، الذين يقدمون معلومات عن أحداث سابقة عاشوها أو سمعوا بها، فهو عملية تسجيل تاريخ الحياة لعدد كبير من الناس.

كما يمكن تعريفه أنهشكل من أشكال البحوث التاريخية التحليلية التاريخية، التي تسجل الكلمات المنطوقة و الشهادات الخاصة بالأفراد الذين شهدوا أو شاركوا في أحداث تاريخية مهمة، فيتم تسجيله بواسطة تسجيلات صوتية أو صوت و صورة معا، لغرض دراسة الحوادث الماضية و الحديثة و نقلها إلى الأجيال المستقبلية.

**موضوع التاريخ الشفوي:**

يهتم التاريخ الشفوي بتسجيل ذكريات الناس و تجاربهم في الماضي القريب و تتناول الرواية الشفوية مختلف نواحي الحياة الاجتماعية بعاداتها و تقاليدها و العرف و الأغاني و الرقص و الموسيقى و الزجل الشعبي و الأزياء، و الحلي، و المناسبات الاجتماعية و اللهجات المحكية، و الأمثال الشعبية، والحكايات و القصص الشعبية، و الطب الشعبي، و أدوات المنزل، و تاريخ الفنون و الحرف و المهن، و التاريخ العائلي للعائلات و إسهاماتها في الحياة العامة، و أملاكها، و الحياة العلمية و الثقافية و الدينية إلى جانب الحياة السياسية، في حين أن التاريخ المكتوب يركز على التاريخ السياسي'.

التاريخ الشفوي هو ذاكرة منطوقة تقدم أحداثا تاريخية من خلال عقد مقابلة شخصية مع شاهد عيان لحدث معين أو مشارك في صنعه أو أحد المعاصرين لوقوعه، يذكر عادل يحيى في دراساته تعريف الباحثة الأميركية جان فانسينا Jan Vancina التي ترى أن التاريخ الشفوي ' منهج بحث يعني بدراسة الماضي من خلال الكلمة المحكية المحفوظة في الذاكرة، و المنقولة مشافهة، و يشمل التراث الشفوي أي دراسة الماضي البعيد من خلال الروايات الشفوية الشائعة في مجتمع معين، و المنقولة مشافهة عبر عدة أجيال، أو جيل واحد على الأقل.

و تاريخ الحياة و هو دراسة الماضي القريب من خلال روايات شهود العيان، أي روايات الناس الشفوية عن أحداث حياتهم، خبراتهم، و مشاهداتهم، خاصة تلك الأحداث التي شاركوا فيها شخصيا، أو كانوا شهود عيان لها ' و يضيف يحيى' شاع بين الدارسين في الفترة الأخيرة استخدام مصطلح التاريخ الشفوي بالمعنى الثاني، أي دراسة الماضي القريب ' تاريخ الحياة ' عن طريق جمع المقابلات الشفوية '.

**علاقة التراث الشفوي بالتاريخ:**

تخلي المؤرخين عن المصادر الشفوية قد ترك للمختصين في الفولكلور و الأنثربولوجيا الميدان واسعا، مما جعل تلك المصادر تنأى عن بعدها التاريخي، و لم يعترف المختصون في تلك العلوم بأهمية التاريخ في دراسة التراث الشفهي، إلا في مطلع عقد الخمسينيات من القرن الميلادي الماضي، و لعل السبب هو سيطرة علماء الفولكلور على المصادر الشفوية، و كانوا يطلقون على تلك المصادر اسم الأساطير، و الخرافات الوعظية، و كانوا يرونها تدل على المعنى الفلسفي و المغزى التعليمي، أكثر من كونها تحمل أي تفاصيل تاريخية، بل وصل الأمر ببعضها على التصريح بأن المصادر الشفوية لا تحتوي على حقائق تاريخية.

إن التراث الشفوي وثيق الصلة بالتاريخ، ذلك أن الأول يعد مرآة المرحلة الحضارية التي يعشيها الناس، و هو يعبر عن أفكارهم و عواطفهم، كما أنه يصوِر شيئا غير يسير من النظم الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية و الثقافية السائدة، بل إن بعض الباحثين يعتقد أن التاريخ المدون ولد في أحضان التراث الشفوي.

إن مكونات التاريخ الشفهي هي مكونات التراث الشعبي، مثل الحكايات، و القصص، و السير الشعبية، و الأمثال، و الحكم، و الغناء، و الشعر، فهل يمكن و الحال هذه أن يتجاهل المؤرخ التراث الشفوي، لقد كثر المؤرخون المشتغلون بالتراث الشفوي، و يأتي على رأسهم فاج D.gage، و أليفر R. Oliver اللذان استخدما المأثورات الشفوية، باعتبارها مصدرا تاريخيا، و يرى من درس أعمالهما أنهما لم يطورا نظرية أو طريقة للتعامل مع المأثور الشفهي في ميدان التاريخ، كما فعل يان فانسينا J. Vansina فيما بعد

عمل يان فانسينا على إبراز القيمة التاريخية للتراث الشفوي، و الأنواع الأخرى من التراث الشعبي في كتابه الذائع الصيت الموسوم بـ" المأثورات الشفوية، دراسة في المنهجية التاريخية "، الذي صدر في طبعته الفرنسية لأول مرة عام 9611 م، ثم ظهر في طبعة إنجليزية عام 1965 م في شيكاغو، لقد كان كتاب فانسينا مؤثرا، و ظل مرجعا للمؤرخين المشتغلين بالمصادر.

**أهمية التاريخ الشفهي:**

يصعب على أي باحث في التاريخ المعاصر، أو أي مؤرخ يريد التأريخ لحقبة معاصرة له أو قريبة المعاصرة له، أن يتجاهل الاعتماد على روايات من عاشوا في هذا العصر، و إلا كانت دراسته ناقصة، فقد أضحت الرواية الشفوية لازمة و مهمة و شاهدة على العصر، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الباحث عندما يعتمد على تلك الروايات، ألا يعتبرها بديلا عما ورد في الوثائق المصادر التاريخية الأخرى لأي سبب من الأسباب، بل يعد الرواية الشفوية داعمة لتلك الوثائق و المصادر، إلا في حالة انفراد الرواية الشفوية بذكر خبر أو حادثة لم يرد ذكر لها في الوثائق أو المصادر.

يكتسب التاريخ الشفوي أهمية خاصة كمصدر رئيسي للمعلومات و الأحداث و الفئات لا يلتفت لها المؤرخ الرسمي، الأمر الذي أدركه علماء التاريخ و نتيجة لذلك اتجهوا لدراسة مساحات أخرى من الحياة الإنسانية و من ثم اكتشفوا مصادر أخرى للمعلومات، و أنتج الباحثون في علم الإنسان أعمالا أساسية أبرزت ميزات القصص الشفوية، و قد أظهرت عدة دراسات حديثة أن التاريخ الشفوي يستطيع إلقاء الضوء على عناوين نظرية مثل الذاكرة، الأمة، الهوية إضافة إلى الماضي الجماعي، كما يوجد انعكاس جوهري لهذه الأعمال و هو أن الروايات الشفوية لها قيمتها ليس فقط عندما تعكس الأحداث الماضية بدقة، بل لأنها تعبر عن شيء من العلاقة بين الماضي و الحاضر، و بهذه الطريقة فهي تشبه المصادر التاريخية الأخرى.

تبين الوثائق التاريخية المشاهير و العظماء و توضح الحوادث الكبرى في التاريخ، و لكنها تتعمد تجاوز الناس العاديين و مساهماتهم في تلك الأحداث، و بالتالي فإن التاريخ الشفوي يتقدم ليملأ هذا الفراغ و ليعطينا تفاصيل المشهد التاريخي، من خلال إفساح المجال للناس العاديين لاستجلاء مواقفهم و حكاياتهم و إدراكهم للحوادث و مدى مساهماتهم فيها، و رغم ما حظيت به الوثائق من المصداقية في الدوائر الأكاديمية على حساب الرواية الشفوية، و خاصة عندما تم النظر إلى الرواية الشفوية على أنها نوع من الإشاعة، لكن ما لبث التاريخ الشفوي أن حظي تدريجيا بالمكانة التي يستحقها منذ منتصف القرن الماضي، بل أصبح يتناسب و دوره في كشف الذاكرة الجماعية للشعوب، و ليؤكد على أن الرواية الشفوية ليست فلكلورا بل هي دراسة تكتسب أهمية خاصة في ظل الكلمة المكتوبة و الحقائق اليقينية.

تكمن أهمية التاريخ الشفهي في أنه يعيد التوازن إلى عملية كتابة التاريخ من خلال الاهتمام بذاكرة و أفعال الفئات و الطبقات المسحوقة و المهمشة، فنحن عندما نعلم بأن القوي المنتصر يدون التاريخ وفقا لوجهة نظره و نسج خياله و يعمل على تسجيل الأحداث التاريخية بطريقة تخدم مصالحه و بالتالي يتحول إلى حقيقة و تصبح الأكذوبة واقعا مسلما به، و من هنا برزت ضرورة التأريخ الشفهي و أهميته، لأن الاهتمام بهذا التاريخ المنثور و جمعه و تدوينه يساهم في تسجيل الأحداث حسب واقعها الفعلي، مما يكفل توثيق هذه الأحداث و أرشفتها و الحفاظ عليها لتستفيد منها الأجيال، و تعتمد كمصدر موثوق للباحثين والمؤرخين.

و المهم في الرواية الشفوية أنها أكملت و ما زالت تكمل ما تجاهلته الوثائق الرسمية أو المصادر التاريخية و الاجتماعية السابقة، فتلك الوثائق أو المصادر أخبرتنا بالكثير عن حياة المشاهير و العظماء و المتنفذين، و عن الحوادث الكبرى في التاريخ، لكنها تعمدت و تجاهلت الناس العاديين و مساهماتهم التي كان لها دور بارز في صنع الأحداث، و بما أن التاريخ عامة يدونه مؤرخو الحكومات المختلفة حيث يدونون إنجازات تلك الحكومات فإن الرواية الشفوية وجدت لتعطي المهمشين حقهم من و لتملأ الفراغ الذي تركه هؤلاء المؤرخون، و رغم اهتمام بعض الباحثين بالتاريخ الشفوي منذ زمن، ما تزال مشاريع التاريخ الشفوي لم تحقق كامل أهدافها، فإن الفائدة المرجوة منه لم تتحقق بعد لأن معظم ما أنجز ما يزال مبعثرا في حاجة إلى مؤسسات و مراكز بحث ترعى و تنسق هذا الجهد المبذول و تطوره.

و من هنا برزت أهمية التاريخ الشفوي لأن الاهتمام بهذا الرافد المنثور و جمعه و تدوينه يسهم في تسجيل الأحداث بحسب واقعها الفعلي، مما يكفل توثيقها و الحفاظ عليها لتستفيد منها الأجيال اللاحقة، و تعتمد مصدرا موثوقا للباحثين و المؤرخين، إن ترك استعمال التاريخ الشفوي مصدرا تاريخيا يمثل موقفا رجعيا من التاريخ فإذا ما قارنا بين استعمال الرواية الشفوية التاريخية اليوم و استعمالها قديما فإن ذلك يوجب علينا استعمال التاريخ الشفوي في دراسة القضايا التاريخية.

و عموما يمكن أن نستخلص أهمية أخرى للتاريخ الشفوي تتجلى في:

- يتيح استعمال التاريخ الشفوي الفرصة للطلبة بالتعرف على جزء من التاريخ الحديث.

-ينمي مهارات توجيه الأسئلة و حسن الاستماع لدى المتعلمين من خلال البحث.

-يسهم في احترام الرأي و الرأي الآخر.

-يعمل على نقلالمعرفة من جيل إلى جيل آخر، و من ثم حماية التراث الإنساني من الضياع، فقبل اختراع الكتابة كان التراث الشفوي هو الأداة في نقل المعرفة.

-يشكل أحد المصادر الأصلية في دراسة التاريخ ذلك أن أحداث التاريخ الشفوي تعرف من خلال رؤية الأحداث حال وقوعها و دراسة الآثار التي خلفتها أحداث زمنية معينة.

- يقدم مادة علمية غنية إضافية للبحث العلمي التاريخي عن طريق تحويل الرواية الشفوية إلى نصوص محفوظة على آلات التسجيل الحديثة و أشرطة الفيديو و غيرها، و بعد إخضاعها للنقد و التأكد من صحتها و حسن تبويبها، و خلوها من الدس و التزوير أو الإضافات، تتحول إلى مصادر مهمة للدراسات التاريخية و مادة تدرس في المراحل الدراسة كافة لاسيما منها الجامعات و مراكز البحث العلمي.